الفصل الثالث

الفوضى الرومانية (من 1-500 م)

(عصر الاضطهاد)

مقدمة

تعتبر الإمبراطورية الرومانية إحدى أكثر الفترات التاريخية التى أثرت فى تشكيل العقلية الغربية سواء فى فترة صعودها، أو تنظيماتها، أو حتى فى فترة سقوطها.

لقد أثرت هذه الدولة على مسارات حلفائها و أعدائها على قدم المساواة، و جعلت أى قوى جديدة ناشئة تضعها نصب عينها كمثال يحتذى به فى القوة و السيطرة، و هى على ذلك تعتبر الامتداد الطبيعى لحلم الإسكندر المقدونى فى فتح العالم و السيطرة عليه تحت حكومة عالمية موحدة.

obeikandl.com

ولقد رأينا فى الفصل السابق كيف كان صعود تلك القوة الرومانية من مجرد مدينة صغيرة تقع فى وسط شبه الجزيرة الإيطالية إلى تحولها إلى قوة عالمية تبتلع بشكل تقريبى كامل القارة الأوروبية و الشمال الإفريقى و هضبة الأناضول و الشام، و لا يقف فى مواجهة طموحها التوسعى إلا العملاق الفارسى الرابض فى أرض العراق و أواسط آسيا، و محولا العالم إلى نموذج ثنائى القطبية تتوازن فيه القوة الفارسية مع الهيمنة الرومانية (صراع الشرق و الغرب).

ولقد كانت نهاية عصر الجمهورية الرومانية و بداية العصر الإمبراطورى إيذانا بتباطؤ حركة التوسعات الرومانية ثم توقفها بعد ذلك بفترة قصيرة و إشارة لبدء مرحلة تثبيت الحكم الرومانى فى المستعمرات المفتوحة و استيعابها داخل الإمبراطورية بكل قومياتها و اختلافاتها العرقية و الاجتماعية ثم و العقائدية (و الأخيرة كانت بداية النار التى أكلت هذه الإمبراطورية).

و لأن فترة الخمس قرون التى فصلت بين بدء الحكم الإمبراطورى و انهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية كانت فترة غنية بالمتغيرات، فقد آثرت أن أفصلها عن التاريخ القديم و أتحدث عنها بشكل مستقل حتى تأخذ حقها.

و قد كانت تلك الفترة توطئة لتطور مفهوم الفوضى من مجرد صدام مباشر على الموارد إلى تصادم فى الأفكار و المذاهب و الرؤى تطور ليصبح

تهديدًا لسيطرة الدولة على النظام وعلى نمط الحياة المتعارف عليه وهو ما أدى إلى اشتعال مئات الصراعات فى أركان تلك الدولة ما أنهكها وعجل بسقوطها.

تعالوا نستعرض معا أحداث تلك الفترة.

****

عصر السلام الرومانى

بعد أكثر من عشرين عامًا من الحرب الأهلية الرومانية ما بين قيصر و بومبى أولا ثم أنطونيوس و أوكتافيوس ثانيا، نجح الأخير فى توطيد دعائمه بالانتصار على فيالق أنطونيوس و الأسطول البطلمى فى موقعة أكتيوم البحرية عام 32 ق.م.

كانت تلك الفترة بكل ما شهدته من صراعات دموية إضافة لخمس قرون سبقتها من الصراعات حفر فيها الرومانيون فى الصخر لتأسيس وتثبيت ملكهم إنهاكًا شديدًا ليس للرومان وحدهم، ولكن لكل شعوب البحر المتوسط على حد سواء، فكان لابد من فترة تسكن فيها صوت السيوف و يعلو فيها صوت العقل.

كان أوكتافيوس فى هذا الوقت هو رجل المرحلة، فهو الذى حقق الانتصارات، انتقم من قتلة قيصر، وحد مجهودات الدولة الرومانية الوليدة و مستعمراتها العديدة، هو الذى أنقد روما من براثن تلك الحرب الأهلية المستعرة، و ثبت مجدها و هيبتها كقوة عظمى.

كان من الطبيعى بعد كل تلك الضربات الموجعة التى تعرضت لها الجمهورية و نظامها القنصلى و مجلس شيوخها الطبقى أن تعترف بعجزها عن الاستمرار و تسلم بسيطرة الفرد الواحد الذى اكتسب شعبية جارفة جعلت جميع الطوائف الرومانية تراسله راجية ألا يتخلى عن السلطة.

و لأن للسلطة بريق أخاذ و لقدرة البشر حدود فقد رضخ أوكتافيوس (أو أظهر الرضوخ) لمطالبات الرومان و استلم مقاليد السلطة مؤسسا أول سلالة إمبراطورية رومانية.

كانت هذه المرحلة هى المرحلة التاريخية المعتادة بعد الأزمات، و هى مرحلة الافتتان بالقائد الخارق المنقذ فبتكرار يتشابه فى سياقه مع الإمبراطوريات الفرعونية و العراقية و غيرها تقرر أن يسبغ المواطنون على الإمبراطور هالة ألوهية تمجده و تزيد من سلطانه المطلق.

أما عن أوكتافيوس نفسه (الإمبراطور أغسطس) فقد سعى إلى التحول عن سياسة الفتوحات التى أنهكت الإمبراطورية و التوقف لالتقاط الأنفاس و تثبيت دعائم دولته الجديدة.

كان أغسطس طوال فترة أربعين عاما (من عام 32 ق.م. و حتى عام 10م) من حكمه محاولًا قدر الإمكان لتجنب الصدامات مع شعوب البلاد المفتوحة حتى لا يرهق الجيوش الرومانية بمعارك جديدة تؤثر على استقرار الدولة خاصة أن الحدود الرومانية ظلت طوال تاريخها تقريبا غير مستقرة، تارة فى الشرق إمبراطورية الفرس و تارة فى الغرب من قبائل الجرمان و الكلتيين و غيرهم من برابرة أوروبا.

و كان من ضمن الشعوب التى تعامل معها معاملة طيبة هى القومية اليهودية فى أرض الشام و قد يرجع ذلك إلى سببين:

-الأول: كانت الخدمات التى قدمها رؤساء الطوائف اليهودية لأغسطس إبان فترة صراعه مع أنطونيوس و البطالمة (و ذلك لأن العلاقات بين اليهود و الإغريق بوجه عام كانت علاقات يشوبها الفتور و ملامح العداوة الدفينة، و قد يرجع ذلك للنظرة الدونية التى كان كل طرف ينظر بها للآخر، فالإغريق أصحاب الملك و الحضارة وورثة فاتح العالم كانوا ينظرون إلى اليهود كقومية دونية أو مجرد رعايا فى دولتهم الكبيرة بالإضافة إلى التعامل مع معتقدات اليهود الدينية التوحيدية بنوع من السخرية، و هو بالتأكيد

ما لم يحدث لهم فى وقت تعاملهم مع الفرس، و اليهود كانوا ينظرون لأنفسهم نظرة فخر باعتبارهم القومية الموحدة فى العالم حتى و إن لم يتبعوا شريعتها و هم على ذلك يتذكرون المجد السليمانى القديم، فكل من سواهم من الشعوب هم من الأغيار المفترض بهم خدمة هذه القومية الملكية، فكان من الطبيعى أن ينظروا للإغريق كنظرة سخط لأنهم لم يوقروهم كما ينبغى.

-أما الثانى: فربما كانت العلاقات اليهودية الفارسية القديمة التى لربما ظلت مستمرة حتى مع مجيء الإغريق و الرومان، و أهلت اليهود للعب دور دبلوماسى لفتح طرق تجارية مع الشرق الأقصى عن طريق فارس (وهذا اجتهاد محض).

و عليه فقد قام أغسطس بمنح اليهود ما يشبه سلطة الحكم الذاتى تحت إشرافه على فلسطين، وكان ولاة فلسطين هم من الملوك اليهود حتى إن فلسطين فى ذلك الوقت كانت تُسمى بمقاطعة اليهود الرومانية.

و لأن الفرقة و الخلاف كانت عادة بين أسباط اليهود المختلفة و طوائفهم منذ عهد موسى عليه السلام و مرورا بالبابليين و الفرس و الإغريق وكانوا دائمى الثورة نظرا للخلافات بينهم و بن الإغريق، فقد كان الرومان منذ عهد أغسطس ينظرون لليهود نظرة ريبة و شك، و لكن لأن أغسطس آثر عدم فتح جبهات جديدة و ترسيخًا لمبدأ السلام الرومانى و للسببين السابق

ذكرهما فقد فضل أغسطس توليتهم الحكم الذاتى حتى يبعدهم عن ساحة الصراع، بالإضافة لأن اليهود كانت لهم جاليات لا بأس بها فى مصر و آسيا الصغرى و فارس و إفريقية و حتى فى روما.

وكانت طوائف اليهود منذ عهد الإغريق قد انقسموا إلى فئتين، فئة آثرت التعايش مع نمط الحياة الهيلينية وكان من ضمنهم مجموعة من الأدوميين من ولد عيسى بن إسحاق عليه السلام

الذين اعتنقوا اليهودية مع أبناء عمومتهم، والّذين جاء منهم هيرودس الكبير الذى تولى ملك اليهود تحت سلطة الرومان.

و أما الفئة الأخرى: فعُرفوا بطائفة اليهود المكابيين نسبة إلى قائدهم يهوذا المكابى، و هى طائفة رفضت نمط الحياة الإغريقية، و أصروا على الاستمرار على نمط حياة اليهود الصرفة و مع نفس النظرة الانعزالية و الدونية لبقية الشعوب، و قد استغل قائدهم يهوذا المكابى الخلاف بين البطالمة و السلوقيين، فاستقل ببيت المقدس فترة قصيرة من الزمن قبل أن يحتلها الرومان.

كانت الطائفتين من الاختلاف و التشدد بحيث كانوا دائمى المشاحنات و الاقتتال و هو ما جعلهم مصدر قلق للأمن فى الشام (و هى منطقة حيوية للرومان إذ أنها على الحدود مع كسروية الفرس).

كل هذه الأحداث جعلت فلسطين أشبه بقنبلة موقوتة كانت تنتظر الفتيل المناسب للانفجار وكان مولد السيد المسيح عيسى بن مريم عليه السلام هو هذا الفتيل.

****

مولد المسيح عليه السلام:

ذكرنا أن ملك اليهود فى تلك الفترة كان هيرودس الكبير الذى حكم فلسطين باسم الرومان، وقد ذكر الأستاذ عارف العارف فى كتابه المفصل فى تاريخ القدس أن هيرودس كان طاغية جبار، قاتل المكابيين وقضى عليهم وشايع الرومان بغية السيطرة على الملك فى فلسطين، وقد ورد أنه تم تبشيره بغلام يولد فى بيت لحم يكون على يده زوال ملك هيرودس.

كان هذا فى وقت الطوائف اليهودية على أشد الاختلاف المذهبى والشريعة الإلهية شبه متروكة بالكلية إلا من قلة قليلة من بنى إسرائيل، فكان الغالبية يأخذونها فقط عندما تخدم مصالحهم ويتركونها حينما تتعارض مع أهوائهم، وأنبيائهم بين مطارد ومقتول.

ويحكى لنا القرآن دعاء زكريا عليه السلام لربه أن يرزقه ولدًا يجدد شباب الشريعة ويعيد للناس صوابهم المفقود وهو يحيي عليه السلام الذى كان

مناديًا جهورًا بعودة الشعب اليهودى للمعايير الإلهية بكل ما فيها من غير تقصير.

وفى نفس الوقت تقريبا بشر الله تعالى مريم بولادتها لسيدنا عيسى عليه السلام، وأنه يكون رسولًا عظيما ذا شأن.

ولأن هيرودس كان بعيدًا كل البعد عن الشريعة الإلهية، وكما ذكرنا كان طاغية سفاكًا للدماء، فقد أمر بمجرد تبشيره بولادة طفل فى بيت لحم بأن أقام مجزرة مروعة لكل طفل ولد ببيت لحم فى ليلة ميلاد المسيح فيما عُرف بمذبحة الأبرياء، وقد خلدها الفنان الهولندى بيتر بول روبنز فى لوحة خاصة عام 1612م للدلالة على فظاعة ما قام به هيرودس الكبير ليتجنب فقط زوال ملكه على يد ملك اليهود المجهول، وكان ذلك بالتعاون مع الكثير من طوائف اليهود الّذين حادوا عن الشريعة الإلهية ومالئوا هيرودس على باقى طوائف اليهود.

ولكن إرادة الله أبت إلا أن ينجو المسيح الذى هربت به أمه مع يوسف النجار إلى الأراضى المصرية حيث مكثوا هناك لفترة تراوحت بين سبعة إلى إثنتى عشرة عامًا كان خلالها هيرودس الكبير قد مات حيث إن هيرودس الكبير مات فى عام أربعة ميلادية.

ومع وفاة هيرودس الكبير تقسم ملكه بين أبنائه الثلاثة أرشيلاوس و أنتيباس و فيليبس وكانت بيت المقدس من نصيب هيرودس أرشيلاوس الذى لم يستطع إحكام سيطرته على أورشليم .

ناهيك عن طمعه و إخوته كل فى أملاك الآخر ما أدخل فلسطين فى حالة من الفوضى و الاقتتال الداخلى، وتطور الأمر حتى إلى مصادمات بين كل من اليهود و الحامية الرومانية الصغيرة التى حاولت حفظ النظام ما حدا بالحاكم الرومانى العام بفلسطين سابينوس أن يستنجد بالوالى الرومانى فى سوريا لإرسال فيالقه إلى فلسطين لحفظ النظام.

وفى نفس الوقت سعى كل من أبناء هيرودس للنكاية بأخويه عند أغسطس قيصر ما أسقطهم جميعا من نظره و جعله يقرر إلغاء الحكم الذاتى لفلسطين و تحويلها إلى ولاية رومانية مباشرة تحت حكم رومانى مباشر، و هو ما زاد من الاحتقان بين اليهود و الرومان.

كانت عودة المسيح إلى فلسطين من مصر فى ظل هذه الأجواء المشتعلة بين فوضى داخلية للسيطرة على الحكم وكهنوت فاسد يسعى فقط لفرض جبايات و ضرائب، وكل ما يهمه هو تكديس الثروات و الكنوز فى الهيكل و يصدر الفتاوى حسب المبلغ المدفوع.

فى ذلك الوقت كان يحيي عليه السلام يمهد لرسالة المسيح بمناظراته المستمرة مع خدام الهيكل من الكهنة الفاسدين، وبفتاواه للناس التى تسعى إلى ردهم لجادة الصواب وكان يحيى عليه السلام لا يتورع عن الجهر بالحق حتى ولوكان فى وجه الملوك أنفسهم.

فقد جهر يحيي عليه السلام بمعأرضته لمسكانة زوجة فيليبس لأخيه أنتيباس واعتباره زنا صريحًا ومخالفة صريحة للشريعة الإلهية، ما أحنق عليه أنتيباس وتواطأ مع عشيقته وابنتها لقتله وأبيه عليهما السلام، و هما يمهدان لمقدم المسيح عليه السلام ونشر رسالته.

****

دعوة المسيح عليه السلام:

كانت دعوة المسيح عليه السلام دعوة إصلاحية صرفة، ليس لها أى علاقة بالإمبراطورية الرومانية فى بداية الأمر.

فقد كان جل هم سيدنا عيسى عليه السلام هو إصلاح أخلاق بنى إسرائيل الفاسدة ومحاربة فساد كهنة الهيكل من نخبة اليهود الّذين كانوا يمتصون دماء البسطاء فى مقابل تضخم ثرواتهم ورفاهيتهم وهو على هذا لم يتعرض أبدا لمحاربة الرومان أو منازلتهم فى سلطانهم.

ولأن دعوته كانت دعوة بسيطة كما بدأها هو بالإصلاح والالتزام بالشريعة التوراتية الإلهية وليست المحرفة وما نسخ منها بعد ذلك فى الإنجيل فقد لاقت دعوته بعض الاستحسان من البسطاء من بنى إسرائيل وأحيانا من غير اليهود الّذين وجدوا فى تعاليمه الأخلاقية نوعًا من الاطمئنان فى ظل الجور الطبقى الرومانى واليهودى .

ولكن على الرغم من كل ما سبق نظر الرومان إلى دعوة سيدنا عيسى نظرة العدو على المستويين الشعبى والرسمى.

فعلى المستوى الشعبى كان العداء الشعبى بين معتقدات الرومان الوثنية و عبادتهم للإمبراطور ومعتقدات اليهود التوحيدية، إضافة إلى المشاحنات بين الطرفين سببا فى كره الرأى العام الرومانى للرسالة الجديدة التى خرجت من وسط هؤلاء المشاغبين الفوضويين، فهى بالنسبة لهم لا تحمل إلا نذير خراب وشؤم (طبق الرومان هنا الحكمة القائلة بأن الإنسان عدو ما يجهل).

وأما على المستوى الرسمى للحكام خاصة بعد وفاة أغسطس فقد رأى الأباطرة الرومان هؤلاء اليهود خطرا على السلم الإمبراطورى العام خاصة مع وصول عدد من الأباطرة المضطربين نفسيا إلى سدة الحكم فى روما.

فتيبيريوس (الإمبراطور الرهيب) الذى خلف أغسطس كان معروفا عنه المزاج الدموى و الاضطراب النفسى كما أنه لم يكن على استعداد إطلاقا لأى نوع من الإخلال بالنظام فى المستعمرات البعيدة، فقد كان يكفيه ما يراه من المؤامرات الداخلية للاستيلاء على العرش و من تهديد قبائل الجرمان المستمر للحدود الرومانية الشمالية.

كما زاد من تضخيم الخطر وشايات و أحقاد نخبة الكهنوت اليهودى و أعوان هيرودس أنتيباس الّذين جحدوا نبوة عيسى عليه السلام و رأوا فيه تهديدا خطيرا لمصالحهم و ثرواتهم و نفوذهم داخل بيت المقدس.

و كانت النتيجة الطبيعية لكل تلك الأحقاد لهذه الرسالة الإصلاحية هو مؤامرة يهودية رومانية للتخلص من نبى الله عيسى عليه السلام و من حواريه الّذين آمنوا به و كانوا يعاونوه على نشر رسالته.

و تقريبا فى عام 25 م بعد ثلاثة سنوات من بعثة عيسى عليه السلام أصدر الوالى الرومانى قراره بالقبض على سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام و إعدامه و كلف اليهود بتنفيذ هذه المهمة؛ لأنه حتى هذه اللحظة لم يكن الرومان قد أعلنوا عداءهم الصريح للمسيحية و كان الموضوع فقط منحصر فى قمع قلاقل فى مقاطعة اليهود.

وكما أخبر القرآن الكريم فى هذه الحادثة أن الله أوحى إلى رسوله أنه مطهره من الّذين كفروا به من يهود وأنه سيرفعه إليه وينجيه من المصير الذى أعده له اليهود.

ويروى ابن كثير فى البداية والنهاية أحاديثًا كثيرة مفادها جميعا أن المسيح قد جمع حواريه وأعد لهم عشاءً (وهو العشاء الأخير الذى تحدثت به النصارى) وأخبرهم بنية اليهود على قتله، وطلب منهم أن يتطوع أحدهم ليُلقى عليه شبهه فداءً له ويكون رفيقه فى الجنة فتطوع أحدهم لذلك ثم افترقوا عن منزله قبل وصول اليهود ورفع الله عيسى إلى السماء، بينما قبض اليهود على شبيهه وهو من عذبوه وصلبوه، فكان من شهد صلبه هم اليهود بينما لم يشهد أحد من النصارى واقعة الصلب.

بسم الله الرحمن الرحيم (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الّذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما) صدق الله العظيم.

وقفة: كانت نقطة ادعاء اليهود بصلب المسيح ونقطة رفعه إلى السماء محورين عظيمين لاضطرابات عظيمة سيأتى ذكرها لاحقا.

أخذ تلاميذ المسيح عليه السلام بعد هذه الحادثة العظيمة على عاتقهم نشر تعاليمه إلى الناس وتفرقوا فى البلدان ناشرين دعوته الإصلاحية لليهود وغيرهم فنتج عن ذلك تحول رسالة المسيحية من رسالة إقليمية خاصة إلى رسالة عالمية عامة.

ملحوظة هامة: ربما من تدابير الله أن تتحول رسالة المسيح عليه السلام إلى رسالة عالمية؛ لأن لفظة الإنجيل – وهو الكتاب الواحد الذى أنزله الله على عيسى بن مريم عليه السلام- هى لفظة عبرانية وتعنى البشارة وكما أخبرنا الله فى قرآنه، فقد جاء عيسى عليه السلام مبشرا بقرب نبوة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم وعليه فقد كان تحول المسيحيين الأوائل لنشر رسالته فى البلاد المختلفة إنما كان تمهيدا لتعريف العالم كله بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإثباتا لعالمية رسالته (بُعثت للناس كافة).

<u>الصدام الرومانى اليهودى</u>

أخذ اليهود على عاتقهم بعد حادثة الصلب مطاردة المؤمنين بالمسيح فى بيت المقدس وتدبير المكائد لهم والوشايات عند الرومان فى ذلك الوقت لاقتلاع دعوتهم من جذورها ووصل الأمر لقتل بعضهم ممن بقوا فى بيت المقدس أو فى فلسطين.

وعلى الرغم من نجاح اليهود فى إوغار صدر الرومان على المسيحيين خاصة مع تعاقب الأباطرة المضطربين نفسيا والمحبين لشهوة القتل على عرش

روما (من أمثال كاليجولا الذى خلف تايبيريوس و حكم أربع سنوات منذ عام 37-41م أذاق فيها كل شعوب إمبراطوريته بما فيهم الرومان أنفسهم أقسى أنواع العذاب و انتهت بقتله) إلا أن أسلوب حياة اليهود أنفسهم و نزعتهم المستمرة إلى الشغب بين طوائفهم المتعددة ما بين فريسيين و صدوقيين و غيرهم من المغالين و الفئة الأخيرة أسماهم الرومان أحيانًا فئة القتلة؛ لأنهم لم يتورعوا أبدا عن القتل إذا رأوا في أحد اليهود رغبة أو ميل ناحية الرومان فى أى شيء (لاحظ هنا أن وجهة التعصب الدينى قديمة لا ترتبط بديانة معينة و إنما بأخلاق من يطبقونها).

و مع تعدد جاليات اليهود فى أماكن مختلفة من الإمبراطورية الرومانية و هم مع تعدد أماكنهم متفقين فى مجمل أسلوب الشغب ما حدا بكثير من الأباطرة من أمثال تيبيريوس و كلوديوس فى نفيهم و إجلائهم من أماكن كثيرة إلا أن ذلك لم يقلل من أسلوبهم المشاغب.

و مع حادثة الصلب و ابتداء انتشار المسيحية بين أرجاء الإمبراطورية بشكل سريع رأى الرومان فى ذلك العديد من المخاطر التى تهدد صلاحيتهم و مواردهم و تأكد عندهم هنا أن أصل هذه المشكلة يقبع فى بقعة واحدة..فلسطين.

ومع حلول عام 54م تولى نيرون آخر أباطرة الأسرة اليوليو كلودنية المضطربين نفسيا عرش روما ومع توليه العرش بدأ نيرون بالصدام العلنى بين الوثنية والمسيحية من ناحية واليهودية من ناحية أخرى.

****

نيرون وبداية ثورات اليهود :

ورث نيرون جنون عمه كاليغولا ومجونه وعربدته ومنذ أن اعتلى سدة العرش فى روما عقب مؤامرات أمه المحكمة أغريبينيا والتى وصلت أن قتلت الإمبراطور كلوديوس لتفسح له المجال، إلا أن نيرون كان حاكمًا فاشلًا مشغولًا عن تدبير شئون الإمبراطورية بحياة اللهو والعبث والتى تسببت إحداها فى صدامه مع أمه التى انتهت حياتها على يديه بعد ذلك.

وكأنما أصيب بجنون القتل فراح يقتل كل المقربين من حوله من زوجته وابنه وأصدقائه المقربين وكل ذلك وهو منغمس فى حياة الترف واللهو مهملا لكل التهديدات التى تحيط بالإمبراطورية من كل جانب.

فبسبب مجونه وعبثه ضعف الموقف السياسى لروما بشكل كبير ما شجع على قيام ثورات قبلية كثيرة للاستقلال عن السلطان الرومانى الذى سيطر عليها بقوة السلاح قديمًا.

وبدلًا من أن يلتفت نيرون لمسئولياته أقنع نفسه أنه يصلح كمغن وممثل بارع وجعل صفوة مجالسيه من الممثلين والمغنين الّذين كان ينظر إليهم المجتمع الرومانى فى ذلك الوقت نظرة دونية.

وفى عام 64م أكمل نيرون سلسلة جرائمه بخياله المجنون فى بناء روما جديدة فدبر حريقًا كبيرًا التهم عشرة أحياء من أربعة عشر حيا فى روما و تسبب فى وفاة الآلاف.

وحتى لا تتجه إليه الاتهامات التى على صوتها قرر نيرون أن يقحم المسيحية الوليدة فى صراع لا ذنب لها فيه فاتهم المسيحيين الرومانيين بتدبير أحداث حريق روما.

وبالطبع كانت النتيجة المعروفة هى مذابح بالجملة فى حق كل من ثبتت عليه تهمة المسيحية فى ذلك الوقت وبأبشع الوسائل، فكان عصر نيرون هو بداية عصر الاضطهاد الرومانى الوثنى للمسيحيين.

وبالانتقال إلى فلسطين التى كانت واقعة هى الأخرى فى خضم الفوضى، فقد كان اليهود فى حالة مروعة من الفتنة والاختلاف لدرجة أنهم كانوا يقتلون بعضهم بعضا غدرًا بالخناجر فى الشوارع والطرقات.

ومع حلول الفوضى فى أنحاء الإمبراطورية والاضهاد الآخذ فى التصاعد ضد المسيحيين كان الوضع برمته ينذر بانفجار كارثى.

الحرب الرومانية اليهودية الأولى (66-70 م) :

فى عام 66 ميلادية و فى خضم أحداث الفوضى التى كانت تشتعل تارة بين طوائف اليهود المختلفة و بين اليهود و المواطنين الآخرين من الأدوميين و الإغريق و حتى الرومان، أقدمت جماعة من الإغريق على تقديم قرابين وثنية أمام أحد المعابد اليهودية فى قيصرية.

اشتد غضب اليهود لهذا الموقف الذى اعتبروه إهانة لمقدساتهم، فحدثت مشاجرات تطورت إلى اشتباكات عنيفة بين اليهود و الإغريق فى قيصرية امتد مداها لتشمل كافة المدن الفلسطينية و تركزت بيت المقدس.

تحولت الاشتباكات إلى ثورة عارمة هاجم فيها مجموعات من اليهود كثير من اليهود الإغريق و كبار رجال الكهنوت اليهودى فى محاولة للقضاء على الفساد المستشرى فى المجتمع اليهودى، فسالت الدماء أنهارًا فى بيت المقدس و قُتل ما يقرب من اثنى عشر ألف يهوديًا أغلبهم من الأغنياء من الموالين للإغريق و الرومان، و أعلن الثوار على إثر ذلك شق عصا الطاعة عن الإمبراطورية الرومانية، و أفلت زمام الثورة التى ظلت تحت الرماد منذ عهد أغسطس، فاشتعلت فى كل مدن فلسطين و جرت مذابح بين اليهود و غير اليهود فى بيت المقدس و قيصرية و غيرها.

حاصر الثوار اليهود الحامية الرومانية المرابطة فى قلعة الماسادا و أرغموهم على تسليم أسلحتهم ثم أبادوهم عن آخرهم.

على إثر ذلك استدعى الوالى الرومانى على سوريا ثلاث فيالق رومانية كاملة قدرت أعدادها التقريبية بحوالى أربعين إلى خمسين ألف جنديًا مدججين بالأسلحة بقيادة الجنرال فسبآسيان.

دارت معارك عنيفة بين الفيالق الرومانية والعصابات اليهودية المسلحة لم يكن النصر فيها حليفا لليهود الّذين تخندقوا داخل بيت المقدس مع إصرارهم على القتال وعدم التسليم للرومان.

قامت قوات فسبآسيان بمحاصرة بيت المقدس منذ عام 68م حتى عام 70 م.

وفى عام 68م حدث أن أصدر مجلس الشيوخ قرارًا بعزل نيرون من الحكم و اعتباره عدوا للإمبراطورية ما أدى إلى هروبه ثم انتحاره، ونتج عن ذلك صراعا على السلطة بين أربعة من الجنرالات من ضمنهم فسبآسيان الذى ترك أمر حصار بيت المقدس إلى ابنه تيتوس و ذهب هو للحصول على نصيبه من الإمبراطورية عام 69 ميلادية فيما عرف بسنة الأباطرة الأربعة و التى تعاقب فيها أربعة من قادة الجيش الرومانى على الحكم حتى تمكن فسبآسيان فى نهاية الأمر من الاستيلاء على العرش.

وفى هذه الأثناء كان ابنه تيتوس يدك أسوار القدس بالمنجنيق ويشدد عليها الحصار حتى استطاع فى عام 70 م من اقتحام بيت المقدس وأقام

فيها مذبحة مروعة و دمر الهيكل هذه المرة إلى الأبد و جعله أثرا بعد عين و جعل المدينة مقبرة ينعق فيها الغراب و قدر المؤرخون عدد القتلى من اليهود فى هذه المعارك بمئات الآلاف و هكذا تم قمع الثورة بكل قسوة

أسطورة الماسادا:

وكان من ضمن أحداث هذه الحرب حصار الرومان لبقايا الثوار فى قلعة الماسادا و التى يزعم اليهود أنهم حوصروا فيها لمدة ثلاث سنوات حتى كانوا يأكلون الجثث، و عندما يأسوا من الحصار اتفقوا على أن يقتلوا بعضهم بعضا بدلا من أن يقعوا فى أسر الرومان و ما ينتظرهم من صنوف العذاب لو وقعوا فى أسرهم حتى لم يتبقى إلا رجلين أدركهما حب الحياة فسلموا نفسيهما للرومان ويضرب بها اليهود مثالا لبطولتهم الخارقة فى مواجهة الرومان و هى ما أضحت جزءً من التكوين النفسى التى استخدمها اليهود فيما بعد للترويج لثقافة تعرضهم للاضطهاد منذ القدم، بغض النظر عن مشاغباتهم و انحرافاتهم النفسية المتعددة و جرائمهم.

و مع فوز فسبآسيان و تأسيسه السلالة الفلافية من عام 70م و حتى عام 96 م عقب انتهاء الثورة اليهودية الأولى فقد بدأت الحياة تعود لمجرياتها بهدوء إلى روما.

استمرار الاضطهاد المسيحى :

كان اليهود وثوراتهم واضطراباتهم جزءً مهمًا من التصور الرومانى للمسيحيين، فالمسيحية قد خرجت من رحم بيت المقدس فكان من الطبيعى مع انتشارها أن ينظر لها الرومان نظرة عدائية شديدة دابوا معها على مطاردة كل أتباع المسيحية .

وقد تزايدت العدائية للمسيحيين مع حقبة الأباطرة الأنطونيين منذ عهد تراجان الإمبراطور الطموح الذى هاجم إمبراطورية الفرس الأشكانية، و سعى لتأمين حدود الإمبراطورية الشرقية والغربية من كل النواحى.

فقد حرم تراجان اعتناق المسيحية وجعل مجرد اعتناقها تهمة يكون عقوبتها أبشع أنواع الإعدام.

كان المسيحيين جماعات متفرقة متناثرة فى أنحاء متفرقة من الإمبراطورية، ونتيجة لتفرقهم جماعات جعلت كل جماعة لهم رئيسًا و قائمين على تصريف شئون الجماعة ومن هذه الجماعة تم ترجمة اسمها لليونانية فظهر مصطلح الكنيسة والذى يعنى باليونانية جماعة المؤمنين.

وكان لكل جماعة أسقف أو رئيس للكنيسة وهو المسئول عن تصريف شئون الكنيسة الدينية والحياتية. ومع انتشار الجماعات المسيحية انتشرت الكنائس وتفرعت أعمالها وظهر لها الخدام الّذين يقومون على

الأمور المالية والحراسة والتنظيم الذى كان متحتما عليهم لسرعة التحرك من مطاردات الوثنيين الوحشية.

ومع ازدياد الاضطهاد الرومانى الوثنى للمسيحيين هرب الكثير منهم إلى الصحراء حيث أسسوا لهم مجتمعات فى الصحراء بعيدا عن يد البطش الرومانية، وظهرت معها حركة الرهبنة وتأسيس الأديرة.

الحرب اليهودية الرومانية الثانية عام 115-116 م:

وفى عهد تراجان ثارت الجاليات اليهودية فى أفريقيا مستغلين انشغاله فى حربه ضد الفرس وهاجموا الجاليات الإغريقية والعمارات الرومانية فى ليبيا، ودارت بينهم مواجهات دامية ومذابح رهيبة ادعى فيها بعض المؤرخين أن اليهود ذبحوا الإغريق وتمنطقوا بأمعائهم وجلودهم وادعى البعض أن عدد الضحايا وصل إلى 250000 ألفا وهو رقم مبالغ فيه إلا أنه يسلط الضوء على بشاعة المذابح التى دارت هناك.

أدت هذ الثورة إلى تسيير جيوش الرومان إلى هذه الثورة ففتكوا باليهود هناك وشردوهم فى أفريقيا ومنعوهم من ممارسة شعائر اليهودية علانية.

احرب اليهودية الرومانية الثالثة عام 132-136 م:

كانت آخر الثورات اليهودية ضد حكم الرومان فى بيت المقدس فى آخر محاولة منهم للسيطرة على بيت المقدس مرة ثانية فى عهد هادريان خليفة تراجان.

وكان صاحب الدعوة لهذه الثورة معروفًا بشمعون باركوخبا الذى ادعى كذبا أنه هو مسيح اليهود وتجمع حوله آلاف اليهود وأعلنوا استقلالهم ببيت المقدس وهاجموا الحاميات الرومانية وأعملوا العديد من المذابح فيهم.

كان الرد الرومانى هذه المرة قآسيا حيث سيروا لهم ما يقرب من ست فيالق كاملة حاصرت بيت المقدس على مدار ثلاث سنوات كاملة، وعلى الرغم من استبسال اليهود فى الدفاع عنها إلا أن جحافل الرومان تمكنت فى نهاية الأمر من سحق الثورة وأعملوا التقتيل فى الثوار اليهود حتى قدر المؤرخين عدد القتلى ما يقرب من 580 ألف يهوديًا وأصدرها دريان قرارا بطرد اليهود نهائيا من القدس، وألا يساكنوا أهلها بعد ذلك واستغل ذلك لطرد المسيحيين أيضا على الرغم من عدم تأييدهم لثورة باركوخبا الذى قُتل هو الآخر فى المعارك.

كما أصدر مرسوما بهدم كل معالم القدس القديمة وأسس بدلا منها مدينة جديدة أسماها مقاطعة بيت إيلياء الكابيتولينية.

كانت نتيجة هذه الفوضى المستمرة فى فلسطين مجموعة من النتائج التى كان لها تأثير قويًا فى العصور التالية وهى كالتالى:

-تعمقت العداوة بين العرق الرومانى الآرى والعرق اليهودى السامى وورث هذه العداوة بعد ذلك العروق الأوروبية فى العصور الوسطى ضد اليهود.

-تمايزت الديانتين المسيحية واليهودية بشكل واضح ففى حين كانت اليهودية مقصورة على بنى إسرائيل وقليل من القبائل التى تداخلت معها كانت المسيحية أوسع انتشارًا وأعمق تأثيرًا فى مفاصل الدولة الرومانية فضمت أعراقًا متعددة وجنسيات مختلفة، كما استحكم العداء بين أتباع الديانتين فقد حمل المسيحيين اليهود مسئولية كل النكبات التى تعرضوا لها على يد الوثنيين منذ حادثة الصلب وحتى تشتيتهم.

-تحول السلوك الاجتماعى اليهودى من سلوك القومية الموحدة لسلوك الجاليات المتناثرة وما ترتب عليه من سلوكهم مسلك الجماعات السرية و اقتصارهم على أدوار محددة فى المجتمعات التى عاشوا فيها وتفردوا بها و هو مسلك التاجرالمرابى الجشع فهم يرون المال والسلطة الأقوى والأعلى تأثيرًا، فبالمال يشترون الأهواء والضمائر والمناصب وبشرائهم لأصحاب النفوس الضعيفة يستطيعون قلب النظم وإزاحة الخصوم والانتقام من أعدائهم القدامى والسيطرة على مقدرات الأمور فى العالم بشكل كامل و هو ما سيتضح جليا فى العصور الوسطى والحديثة.

الإمبراطورية الرومانية من عام 192– 315 م :

منذ انتهاء السلالة الأنطونية عام 192 م دخلت الإمبراطورية الرومانية فى مرحلة اضطرابات متنوعة طويلة الأمد تباينت درجاتها من الضعف الشديد إلى القوة و السيطرة و تعاقب فى هذه الفترة ما يقرب من عشرين إمبراطورا تباينت مدة حكمهم من شهرين فقط إلى بضع وعشرين سنة تعرضت فيها جدود الإمبراطورية إلى التوسع و الانكماش عدة مرات و تميزت هذه المرحلة بكثرة تمردات قادة الجيش و تطلعهم إلى الانقضاض على العرش الإمبراطورى فى أول فرصة و كان أغلب أباطرة هذه الفترة تنتهى حياتهم بتمرد عسكرى ينتهى بمقتل الإمبراطور.

و منذ عام 235 م تعرضت الإمبراطورية لهجمات متفرقة من الفرس فى الشرق الّذين نجحوا فى انتزاع أرمينيا و سوريا و أنطاكية بشكل مؤقت و قبائل الجرمان و القوط و الفرنجة فى الغرب و تعرضت لمخاطر عديدة و بدا أن الوهن آخذ فى الازدياد فى مفاصل الإمبراطورية.

و فى عام 284 م تولى دقلديانوس سدة الحكم فى روما و نجح فى استعادة النظام فى أرجاء الإمبراطورية ووضع نظامًا جديدًا للحكم فى عام 305م عُرف بنظام الحكم الرباعى حيث أوكل الحكم لأربعة رجال تحت إمرته لتسهيل قيادة دفة الإمبراطورية الشاسعة

وتفاوتت فى خلال تلك الفترة طريقة التعامل مع الديانة المسيحية التى بدت أنها غير قابلة للهزيمة، فأفكارها مازالت تلاقى انتشارا وأتباعًا، فكان التعامل معها تارة بالتسامح والتساهل وأحيانا أخرى كثيرة بالقسوة والعنف الشديدين مثلما فعل دقلديانوس فى نهاية حكمه من اضطهاد شديد للمسيحيين وحرق للكتب المقدسة وهدم للكنائس حتى أن المسيحيين المصريين أرخوا حكمه كبداية للتقويم القبطى فيما عُرف بعصر الشهداء.

ولكن المسيحية كانت على موعد مع تحول جديد مع دخول لاعب رومانى جديد إلى ملعب الصراع وهو قسطنطين الأول.

فقسطنطين الذى تربى فى بلاط دقلديانوس وبزغ نجمه كجنرال فى الغرب الرومانى كان والده أحد الجنرالات الكبار الحاكمين للإمبراطورية، وكانت والدته هيلانة من معتنقى المسيحية فى ذلك الوقت، وهو ما كان بداية التأثير فى نفسية قسطنطين الشاب نحو التعاطف مع المسيحيين.

ومع وفاة دقلديانوس عام 305م دخل قسطنطين فى صراع على العرش مع ستة رجال آخرين استمر منذ عام 305م حتى عام 313م عندما تمكنت جيوش قسطنطين من جيوش لينيوس المنافس الوحيد المتبقى ودحرته وقُتل لينيوس ليصبح قسطنطين هو الحاكم الأوحد مرة أخرى للإمبراطورية.

زعم قسطنطين أنه رأى الصليب كعلامة فى السماء و أن به يغلب فاتخذ قسطنطين علامة الصليب كشعار لجيوشه وعندما انتصر على لينيوس قرر قسطنطين اعتناق المسيحية و اتخذ من الصليب شعارلها.

أعقب ذلك بإرسال أمه الملكة هيلانة إلى بيت المقدس، حيث زعمت هى الأخرى أنها تمكنت من تحديد المكان الذى دُفن فيه الصليب الذى صُلب عليه شبيه عيسى عليه السلام فى رؤيا جاءتها.

كان اليهود ومن بعدهم الرومان قد اتخذوا من هذا المكان مكبا للقمامة فلما ذهبت إليه أخرجت منه ثلاث صلبان و أخذت أحدهما و ادعت أنه الصليب المشهور، و أمرت بتنظيف المكان من القمامة وبناء كنيسة عظيمة عليها و سميت بهذا كنيسة القمامة نسبة إلى المكان الذى وُجدت فيه ثم حول النصارى اسمها إلى كنيسة القيامة، نسبة إلى حادثة القيامة (أو هو الرفع كما ذكر القرآن) وكان ذلك فى عام 324م و من هنا بدأ النصارى فى تعظيم الصليب و تقديسه، وكان من البدع الكثيرة التى دخلت عليهم بعد (منحت هيلانة على إثر ذلك لقب قديسة).

و مع اعتناق قسطنطين للمسيحية أصدر عهدا عامًا فى الإمبراطورية بالعفو عن كل المسيحيين و اعتبار المسيحية هى الدين الرسمى للإمبراطورية و إلغاء كل مظاهر الوثنية من الدولة الرومانية وكان ذلك

عام 313 م وكان الظن هنا أن المسيحية قد انتصرت وآن لأصحابها أن ينعموا بالانتصار ويهنأوا بالراحة ولكنهم كانوا على خطأ.

الاضطرابات المذهبية في روما المسيحية:

ذكرنا سابقا أن اليهود كانوا هم الجماعة التى شهدت حادثة الصلب؛ لأن أصحاب المسيح كانوا قد غادروا منزله قبل أن يرفعه الله إلى السماء وقبل أن يقتحم اليهود منزله ويقبضوا على شبيهه.

وعلى اعتبار صدق اليهود (وهذا غريب بالنظر إلى العداء بين الطرفين) صدق النصارى بدورهم أن المسيح قد صُلب وحتى هذا الوقت كان النصارى يعتبرون المسيح بشرا ونبيا ولم يصل إلى خلدهم التعامل معه كإله ولا حتى فى عهد المسيحيين الأوائل.

ومع ازدياد معدلات الاضطهاد والقتل والحرق والتدمير المستمر وإحراق الكتب والنصوص، فُقدت الكثير من مصادر المعلومات الدينية الأساسية وذهب الكثير من أصحاب العلم ضحايا لهذه الجرائم الرومانية الوحشية.

ومع انتصار المسيحية على الوثنية بعد صراع استمر ما يقرب من ثلاثة قرون كان من المتوقع أن تسود شريعة المسيح الموحدة وإنجيله الوحيد الصحيح الذى أنزله الله إليه، ولكن ما حدث كان غير ذلك على الإطلاق.

نظر المسيحيين أول ما نظروا إلى أصل عقيدتهم والتى وضحها المسيح بعبادة الله الواحد الأحد وأنه عبد الله ورسوله، ولكن رهبانهم وعلماؤهم انقسموا فريقين فى البداية وارتكزوا فيها على أن المسيح صُلب ثم قام من بين الأموات وأضافوا لذلك حادثة ولادته المعجزة من غير أب.

ومن غير الدخول فى تفاصيل لاهوتية معقدة لسنا بصددها فمجالها مع علماء مقارنة الأديان فقد بدأ الاضطراب بالخلاف حول طبيعة المسيح بن مريم والتى اعتبروها الأساس والركن الركين فى العقيدة المسيحية بدلًا من اعتبار دعوته الإصلاحية التى جاء بها من البداية لإصلاح فساد بنى إسرائيل هى الأساس.

وأما الفرقة الأولى والمعروفة بالملكانية فقالت بألوهية المسيح وفصلوها إلى ثلاثة أقسام الآب والابن والروح القدس المعروفة عندهم بالأقانيم الثلاثة، وقد يكون ظهور هذه الفئة وانتشارها بعد حوالى القرن من بعثة المسيح وهذه الدعوى دخل الكثير من رؤساء النصارى فيها وقد يكون السبب فى انتشارها هو التعذيبات والاضطهادات الكثيرة التى قد لا يتحملها الكثيرون والتى أدت إلى أنواع مختلفة من الانحرافات والافتتان.

وأما الفريق الثانى: فكانت تقول بأن المسيح بشر وأنه غير الله وأنه نبى مرسل ولا غير وهذا القول تزعمه أحد الرهبان كان اسمه آريوس وهو راهب ليبى عاش فى الأسكندرية ورسمه أسقف الأسكندرية كاهنًا.

وحوالى عام 318م اصطدم آريوس مع ألكسندروس أسقف الإسكندرية بسبب تفسير معنى نص ابن الله فى الكتاب المقدس والتى رآها آريوس لا تعنى سوى أن المسيح عليه السلام ليس إلا بشرى مخلوق ولا توجد له أى صفات إلهية وأنه ليس إلا نبي مرسل.

رأى ألكسندروس معتقدات آريوس مخالفة صريحة لألوهية المسيح إلا أن آريوس أصر على رأيه وبدأ يدعو لرأيه فى وسط الناس فى مصر وسوريا و فلسطين وهو الرأى الذى لاقى إقبالا بين عدد لا بأس به من العامة حيث نجح فى كسب عدد من الأساقفة من ضمنهم أسقف نيقوميدية وأسقف قيصرية.

بدأت هذه الدعوة تصيب قلق قادة الكنيسة الّذين رفعوا شكواهم إلى قسطنطين وهو ما أثار قلق قسطنطين حيث خشى من أن تكدر هذه الدعوة السلام الذى نجح أن يفرضه أخيرا فى الإمبراطورية.

وعلى هذا تم الدعوة إلى أول مجمع مسكونى عالمى والذى عُرف بمجمع نيقية عام 325 م ودعى إليه رؤساء بطريركيات روما والقسطنطينية (التى أصبحت عاصمة الدولة منذ عهد قسطنطين) وأنطاكية وبيت المقدس و الإسكندرية بالإضافة إلى حضور قسطنطين شخصيا .

وفى هذا المجمع حكم رؤساء الكنيسة بدعم من قسطنطين بإثبات إدانة آريوس وطرده من الكنيسة إلا أن هناك أطرافًا من المحبين لآريوس سعوا إلى التوفيق بينه وبين قسطنطين، إلا أن آريوس أبى أن يعترف بالإيمان بألوهية المسيح وظل على هذا الحال حتى توفى عام 336م.

ظل المذهب الآريوسي التوحيدى فى صراع مع المذهب الملكانى واصطدام وعلو وهبوط حتى قضى عليه الإمبراطور ثيودسيوس، وأقر المذهب التأليهى الملكانى فى أواخر القرن الثالث الميلادى وأضحت الآريوسية بعد ذلك أقلية شديدة.

كانت أحداث مجمع نيقية عام 325م بداية لحركة اضطهاد واسعة بين العديد من مذاهب المسيحية بعد ذلك.

وكان من أشهرها ما وقع فى مجمع خليقدونيا عام 451م بين الكنيسة البيزنطية والكنيسة القبطية فى مصر، والّذين عادوا ليختلفوا هذه المرة فى طبيعة لاهوت المسيح هل هى طبيعة واحدة أو طبيعتين (كلا الطرفين متفقين على التأليه) ولكن هذا الاختلاف أوقع الكنيسة القبطية التى خالفت (وهى التى كانت متزعمة العداء ضد الآريوسية فى بدايتها) فى نفس موقف الآريوسية وجرى لعن أسقفها واضطهاد جموع المسيحيين فى مصر، فقد كان جليا إذا أن المجمعات المسكونية ليست مجمع تشاور، وإنما تمريرات لقرارات جبرية من القيصر وحاشيته المقربة من يخالفها

يعرض نفسه لمخاطر التعذيب و الاضطهاد العنيف و هو ما جرى مع مسيحي مصر حتى بداية الفتح الإسلامى لها.

ناهيك بعد ذلك أن المسيحيين الّذين جرى اضطهادهم من قبل الوثنيين أرادوا الانتقام من كل ما هو وثنى فحدثت معها انتهاكات عنيفة راح ضحيتها أناس لم يكن لهم يد فى تعذيب و اضطهاد المسيحيين.

كما و أن انتصار المسيحية فى الإمبراطورية الرومانية جعل لرؤساء الكنائس نفوذًا عظيمًا على الجماهير وكيف لا و هم الّذين كانوا يدبرون كل أمور حياتهم فى فترة الاضطهاد.

و مع تزايد النفوذ تزايدت الثروات و الموراد التى تدخل للكنائس من شعوبها المختلفة و أصبح للبابوات أو رؤساء المجمعات الكنسية العالمية نفوذًا يكاد يضاهى نفوذ القياصرة أو قد يزيد (و هذا سيظهر جليا فى رسالة هرقل لسيدنا محمد صلى الله عليه و سلم).

و مع بدايات القرن الرابع الميلادى كانت هناك تطورات متلاحقة على الإمبراطورية أثرت فى دور الكنيسة فيما بعد.

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَمِنَ الّذين قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (14) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (16) لَّقَدْ كَفَرَ الّذين قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأرض جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأرض وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) صدق الله العظيم (المائدة، 14-17)

<u>تقسيم الإمبراطورية و بدايات السقوط :</u>

فى عام 395م أصدر الإمبراطور ثيودسيوس قرارا بتقسيم أملاك الإمبراطورية بين ولديه أركاديوس الذى حصل على الجزء الشرقى (الغنى جدا بثرواته) و هونوريوس الذى حصل على الجزء الغربى (الغنى جدا بمشاكله)

أصبت هناك إمبراطورية شرقية و عاصمتها القسطنطينية وورثت مصر و الشام و آسيا الصغرى و شمال إفريقيا بينما الإمبراطورية الغربية فى روما حصلت على أوروبا الغربية و الجزر البريطانية.

كانت هذه بداية النهاية بالنسبة لمجد روما، فمع فقدانها للمستعمرات الغنية أصبح من الصعب على روما الدفاع عن حدودها فى مواجهة الأعداء التقليديين الّذين استمروا بمهاجمتها بدون توقف منذ نشأتها من الجرمان و الساكسون و برابرة الشمال.

فمع حلول عام 370 م حلت هجرات أخرى من آسيا و دخلت الأراضى الأوروبية وكان الهون من أولى هذه القبائل الواصلة، و هددوا الإمبراطوريتين لأكثر من ثلاثين عامًا وكان زعيمهم أتيلا الهونى رجلًا وثنيًا سفاكًا للدماء يهاجم من غير تردد وكانت هجماتهم أقرب الهجمات شبها بأسلوب المغول الّذين سيظهرون فى العصور الوسطى.

تتابع بعد ذلك وصول قبائل القوط الغربيين و الشرقيين الّذين هاجموا شبه الجزيرة الأيبيرية (أسبانيا و البرتغال)و احتلوها كما أحتلوا أجزاء واسعة من إيطاليا.

و استولت قبائل الفرنجة على كامل بلاد الغال كما هاجم الجرمان الساكسون إسكندنافيا و الجزر البريطانية و انتزعوها من سلطة روما عام 410م.

و مع توسع النفوذ الجرمانى فى أوروبا لم يبق مع روما إلا بضع مدن صغيرة تحت سلطتها حتى تمكن الجرمان من اقتحام روما عام 476م، و أحكموا السيطرة عليها و أسقطوا ما كان يُعرف بالإمبراطور ماركوس أوريليوس ليسدلوا الستار بحلول عام 500م على المدينة التى حفرت فى الصخر طوال ألف عام لبناء قوة ضخمة.

ظلت شقيقتها الشرقية صامدة لألف عام أخرى حتى سقوطها فى نهاية العصور الوسطى.

و مع سقوط الإمبراطورية الغربية و حلول ممالك متفرقة محلها تحول نفوذ الكنيسة الغربية من مجرد سلطان روحى لجموع المسيحيين فى الممالك المختلفة إلى سلطان باطش قوى ماديًا وروحيًا تحكمت به الكنيسة فى رقاب شعوبها و بطشت بأبشع الطرق الممكنة بكل من خالف سلطانها المرعب فى واحدة من أسود فترات تاريخ أوروبا الذى استمر ما يقرب من ألف عام.

ولكن فى الوقت الذى كانت تغرب فيه شمس النظام و الحضارة عن أوروبا كان العالم يتهيأ لبزوغ نجم قوة أكبر من أى قوة عرفها التاريخ كانت لتصبح يوتوبيا أفلاطون لو أحسن أتباعها اتباع منهج معلمها.

مثلث الفوضى:

-الهدف: فى حالة الإمبراطورية الرومانية يتجلى لنا بوضوح المثل القائل (أفظع الأعمال أُرتكبت باسم أصلح النوايا) فكافة المصادمات العسكرية و الفكرية و المذهبية داخل هذه الدولة كانت تهدف لتثبيت أركان الإمبراطورية الرومانية فى العالم القديم، ولكن توجيه هذه الأعمال لخدمة نُخب داخلية معينة أدت لحدوث فشل عنيف غير قابل للإصلاح فى النظام الرومانى، ولم تنفع معه أى تشريعات كانت تصب فى النهاية لصالح النخبة دون باقى رعايا الإمبراطورية، ولم تكن تُطبق على أرض الواقع ما أنتج فوضى تسلسلية مُدمرة داخل الإمبراطورية، وساعد على انتشارها الصراعات الداخلية التى وصلت لحد الحروب الأهلية.

-المستفيد: ببساطة شديدة كان المستفيد هم أعداء الإمبراطورية الخارجيين من فرس فى الشرق، و قبائل جرمانية مختلفة فى الغرب و الّذين نجحوا فى النهاية فى تقويض قوة روما و إسقاطها.

-الخطأ: إن اعتماد الرومان على الحل الأمنى العسكرى فى أغلب أوقات النزاعات داخلية كانت أو خارجية و اعتمادهم مبدأ (الفيالق الرومانية حل

لكل مشكلة) لم يكن حلًا واقعيًا خاصة مع عدم قدرة الإمبراطورية على توفير أكثر من ثمانية و عشرين فرقة عسكرية فى كافة الأرجاء الإمبراطورية و ضعف القدرة على تعويض الخسائر مع تنامى قوة الأعداء لتذهب فى النهاية الفيالق الرومانية أدراج الرياح و لتنتصر مقولة (الكثرة تهزم الشجاعة).

obeikandl.com